مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 479 - 499 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

العلامة في الخطاب اللساني الهيلمسلافي: امتداد أم تجاوز؟

The Sign in the Helmslavian Linguistic Discourse: Extension or Transcendence?

نادية زيد الخير*

Nadia Zidelkhir

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسّرة، جامعة باتنة1-الحاج لخضر (الجزائر)

University of Batna1 - Algeria

nadiaarab2014@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/04	تاريخ القبول:2020/03/27	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

يركز هذا البحث على جانب مهم من أبرز الجوانب في النظرية الغلوسيماتية، وهو مبحث العلامة اللسانية عند لويس هيلمسلاف الذي عكف على بلورة التصور اللساني للعلامة في إطار شمولي كوني ذي بعد إنساني باعتماد النسق الصوري التجريدي الذي حدّده، وما اقترحه من جهاز مفاهيمي ومصطلحاتي يتناسب ومنهجه التجريبي الذي أرساه منذ البداية.

البحث أيضا، حديث عن البنية الرباعية المشكّلة للعلامة في الخطاب اللساني الهيلمسلافي، والتي نهج فيها منهج علماء المنطق والرياضيات، فامتاز بذلك تحليله للعلامة في مشروعه الغلوسيماتي بقدر كبير من الدقة والعلمية في طرحه.

الكلمات المفتاح : علامة لسانية، إبستيمولوجية، غلوسيماتية.

Abstract :

This research focuses on one of the most important aspects of the theory of glossematics, the researcher of the linguistic sign of Louis Hjelmslev, who worked to develop the linguistic conception of the sign in a holistic cosmic context with a human dimension based on the abstract form which he defined, and proposed a conceptual and terminology device that fits his experimental approach that he laid from the beginning.

The research is also a discussion about the quadrilateral structure of the mark in the Helmslevian linguistic discourse, in which he approached the methodology of logic and mathematicians, and this was characterized by

* نادية زيد الخير. nadiaarab2014@gmail.com

his analysis of the sign in his glossematic project with a great degree of accuracy and scientific presentation.

Key words: Linguistic sign, Epistemology, Glossematics.

مقدمة

لقد خصّص هيلمسلاف في مؤلفه "حول مبادئ نظرية اللغة" حيزا صريحا واضحا لدراسة "العلامة اللسانية" عنونه "التعبير والمضمون"؛ وإن كان قد أشار إليها في بعض فصول الكتاب إلا أنه أسهب في الحديث عنها في الفصل السالف الذكر.

وهيلمسلاف لم ينطلق من فراغ في تصوره للعلامة اللسانية، بل بنى مفهومه لها من فرضية دو سوسير، ولكنه طوّرها وكيّفها حسب مقدماته الإبستيمولوجية وجهازه المصطلحاتي؛ حيث تمكن "من صياغة لسانيات تتسم بالروح المنطقية الرياضية، فكانت منظوميته الغلوسيماتيك إضافة نوعية للدراسات اللسانية المعاصرة"[1]. وفيها سعى هيلمسلاف إلى إقامة لغة واصفة للغة، من خلال تبنيه لشرط منهجي أسماه "مبدأ الإمبريقية" الذي يتم تحقيقه بواسطة ضرورة خلو الوصف من التناقض واستيفائه للشمولية والبساطة. وهي خطوات ومبادئ ينبغي أن تسير على هذا النمط من الترتيب[2].

لتنتهي بذلك نظرية اللغة "إلى بناء عدة مناهج إجرائية، يؤدي كل منها إلى وصف خال من التناقض وشامل لأي نص وأية لغة مهما كانت"[3]، ولذلك يُلزم (هيلمسلاف) اللساني اختيار "من بين تلك المناهج الإجرائية جميعا المنهج الذي يضمن لنا الوصف الأكثر بساطة. وإذا كانت عدة مناهج تعطينا وصفا تكون نتائجه على درجة البساطة نفسها علينا أن نختار المنهج الذي يتبع الخطوات الأكثر بساطة. سوف نسمي هذا المبدأ، المستنبط من مبدأ الإمبريقية، مبدأ البساطة"[4].

لقد جعل صاحب الغوسيماتية الارتباط بين الدال والمدلول –بتعبير دي سوسير– اللذين يشكلان الدليل اللساني، وظيفة سيميائية وأطلق على الوظيف (functive)الأول للدليل اللساني مصطلح التعبير (expression)، أما الثاني فسماه المضمون (content)؛ واعتبر "العلامة مقدار يتولد عن الاقتران بين التعبير والمضمون"[5].

ويمكن تمثيل ذلك في الشكل الآتي:

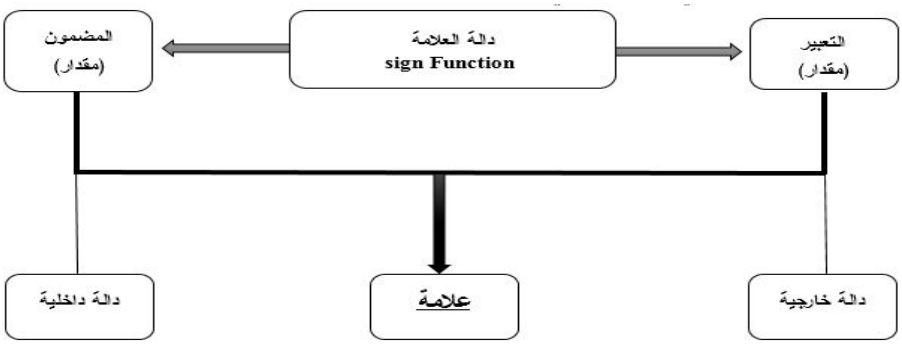

وهنا يحكّم هيلمسلاف معيار الملاءمة في جعل دالة العلامة، دالة خارجية أم دالة داخلية[6]؛ بمعنى آخر هل تنتمي الدالة إلى الترابط الذي يحقق شروط التحليل على المستوى الخارجي (التعبير)، أم تنتسب إلى الترابط الذي يحقق شروط التحليل على المستوى الداخلي (المضمون).

وهو إذ يتحدث عن العلامة يحيلنا إلى شيء آخر أكثر تجريدا سمّاه **دالة العلامة**، أي ما يدلّنا على العلامة المتولّدة عن التعبير والمضمون. وهي ذلك الترابط الذي يحقق شروط وضوابط التحليل على صعيدي التعبير(خارجي) والمضمون (داخلي) باعتبارهما مقدارين (entities) ووظيفين (functives) يعقدان ويؤلفان الدالة.

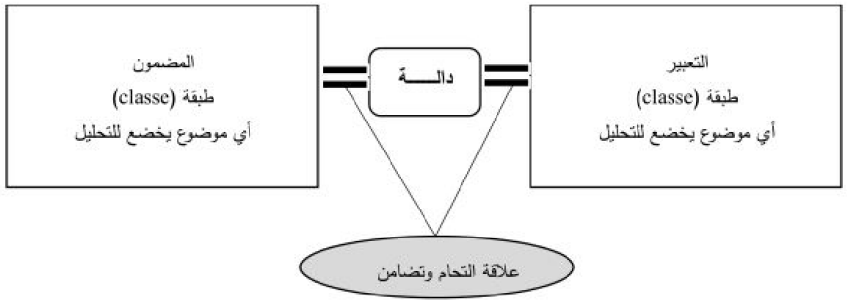

ويشير هيلمسلاف إلى وجود ترابط بين الدالة وطرفي (وظيفي) الدالة، اصطلح عليها علاقة تضامن. "وهو تضامن لا يجعلنا نتصور وظيفة بمعزل عن وظيفيها (أو أكثر) ولا نتصور وظيفا (fonctif) إلا باعتماد مفهوم الوظيفة. وبناء عليه فالتعبير لا يكون تعبيرا إلا إذا كان تعبير عن مضمون ما. والمضمون لا يكون مضمونا إلا إذا كان مضمون تعبير ما"[7]. فهما وجهان لعملة واحدة.

وفي السياق ذاته نلفيه ينفي مطلقا وجود "أية دالة علامة دون الحضور المتزامن لكل من هذين الوظيفين؛ كذلك يستحيل أن يوجد التعبير ومضمونه أو المضمون وتعبيره بدون أن تكون دالة العلامة حاضرة بينهما"[8].

وبالتالي فوظيفي الدالة (التعبير/المضمون) متضامنان، متلاحمان، متلازمان، متزامنان في دالة العلامة، حيث يقتضي وجود أحدهما الآخر بالضرورة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه انتماءهما إلى حيز الضروريات (بالمفهوم المنطقي)؛ إذ يتعذّر فصل أحدهما عن الآخر إلا اصطناعيا لأغراض الدراسة والتحليل.

أولا– الفحوى هو القاسم المشترك بين اللغات

يرى هيلمسلاف في مقدماته أن الألسنة البشرية تختلف في تعبيرها عن التجربة الإنسانية الواحدة، ولكن لها قاسم مشترك يسمى المعنى (الفحوى) أي أن جميع اللغات تشترك في المبدأ البنوي المنضوي على دالة العلامة (الوظيفة السيميائية) وكل الدوال المستقاة منها، غير أن كل لسان من الألسن يقوم بتنفيذ هذا المبدأ بشكل مغاير للألسن الأخرى.

فمثلا تجربة: (عدم العلم)

لا أعلم العربية

I do not know الإنجليزية

Je ne sais pas الفرنسية

فالفكرة (الفحوى) التي تجمع هذه الألسن واحدة، رغم ما يوجد بينها من اختلاف في الشكل أو في كيفية التعبير. وبذلك "فهذا الفحوى، بهذا الاعتبار، يوجد مؤقتا مثل كتلة عديمة الشكل"، مقدار غير محلل"[9]، معرف فقط بدواله الخارجية، قابل للانتظام والتمفصل والتشكل بطرق متباينة في اللغات المختلفة. ففي الإنجليزية نجد الضمير "أنا" (I)، ثم صيغة فعلية للنفي (do not) [مفهوم فعلي مضافا له أداة نفي]، ثم الفعل أعرف.

أما في الفرنسية فالبداية بضمير المتكلم "أنا" (Je)، تليه صيغة النفي المسكوكة المتكونة من [(ne) و(pas)]، يتوسطهما الفعل (sais) المتصرف في الزمن الحاضر présent مع ضمير المتكلم الفرد[10].

ولكن هيلمسلاف يعتبر أن [pas] التي في اللسان الفرنسي أداة نفي يمكنها أن تدل أيضا على [خطوة]، وهي إشارة ذكية من صاحب الغلوسيماتية إلى الاشتراك اللفظي في اللغات، حيث أن "المقدار الواحد ذاته يعقد بالتناوب عدة دوال مختلفة"، ويبدو من الممكن اعتباره مفروزا من طرف تلك الدوال، فالأمر هنا، وفي كل حالة، لا يتعلق بوظيف واحد بل بوظيفين مختلفين، لمواضيع مختلفة، وذلك حسب وجهة النظر التي نختارها. أي حسب الدالة التي ننظر إلى ذلك المقدار انطلاقا منها.

وهكذا فإن المعنى أو الفحوى أو التفكير المعبّر عن التجربة الإنسانية المصاغة في عبارة (لا أعلم) قد أخذ أشكالا متمايزة باختلاف الألسنة. وقد سماه هيلمسلاف بـ (شكل المضمون form of the content)، بينما يبقى الفحوى (المعنى) خامة قابلة للصياغة في شكل جديد، وسمها صاحب النظرية بـ (مادة المضمون substance of the content)[11].

ومنه يصل هيلمسلاف إلى نتيجة مفادها أنه "يوجد في المضمون اللساني، في إنجازه، شكل خاص، وهو شكل المضمون، وهو مستقل عن الفحوى، ويقيم معه علاقة اعتباطية، يقوم بتشكيله كخامة مضمون"[12].

ما يُفهم من كلامه أن المضمون اللساني يتخذ شكلا معينا أثناء تأديته دون ربطه وتقييده بالفحوى، والذي لا يوجد ما يبرر تعبير هذا اللسان أو ذاك عن هذا الفحوى بهذا الشكل أو ذاك.

والأمر نفسه ينسحب على الوظيف الثاني للمقدار الثاني من وظيفي دالة العلامة وهو التعبير expression، الذي يحوي كذلك ثنائية مماثلة للأولى هي شكل التعبير، ومادة التعبير. "فالمادة يمكن أن تمثل لها على المستوى الصوتي الفيزيولوجي بالمسترسل (continuum) الذي يبدأ من الشفتين وينتهي بالحنجرة. وأما الشكل فتضبطه الحدود التي يعيّنها كلّ لسان ضمن هذا المسترسل ويوظفها للتمييز بين الكلمات وهي الصوائم"[13].

وبشكل أكثر وضوحاً، فإن كل لسان من الألسن يتكون من مستويين (صعيدين) صعيد التعبير، وصعيد المضمون؛ الذيْن بدورهما ينشطران إلى شكل ومادة في كل مقدار(مستوى).

مثلا: لدينا المسترسل (**كتاب**)[14]:

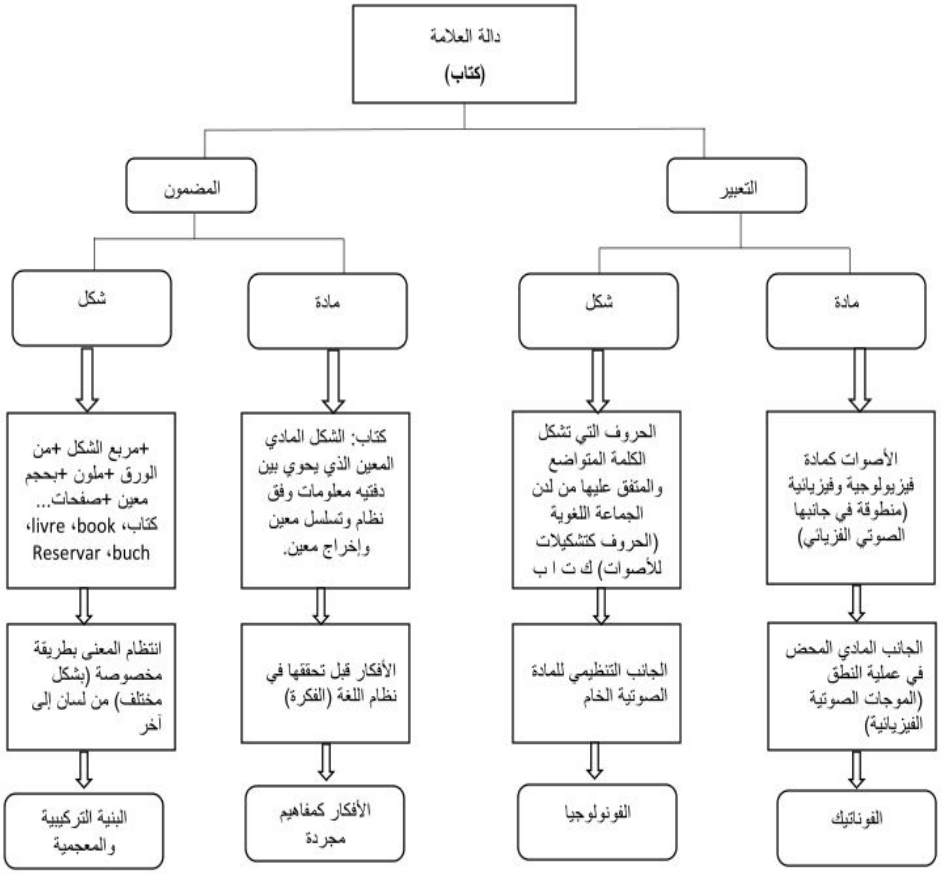

وهكذا يبرز لنا كيف "يشترك الناس جميعا في جوهر المحتوى مهما اختلفت لغاتهم أو تنوعت، على حين يختلفون في شكل المحتوى أي في التعبير عن هذا الجوهر"[15]، وفي هذا المستوى يتم تحليل الوحدة اللغوية "إلى أصغر القطع التي ما بعدها تحليل ولا تقطيع وقد سماها يامسلاف السمات المعنوية"[16].

ثانيا– مبدأ التضامن بين وظيفي دالة العلامة

انطلق هيلمسلاف من فكرة مفادها وجود توازن مطلق بين مستوى اللفظ (التعبير) ومستوى المعنى (المضمون) في اللغة[17]؛ أي أنهما متساويان ومتكافئان في نظام اللغة لكنهما غير متشاكلين، مبرر ذلك عدم إمكانية تحديد وضبط علاقة بين الفونيمات المفردة أو الحروف وبين

العناصر الصغرى للمعنى، وهو ما دفع روبنز إلى القول بوجوب تحليل المستويين (التعبير والمضمون) بطريقة متشابهة[18].

ويعضد هذا الطرح ما ذهب إليه أحمد مومن في خضم عرضه فحوى نظرية الغلوسيماتيك، أن المضمون والتعبير يتمتعان بقيمة واحدة، وأن "كلا منهما يفترض مسبقا وجود الآخر، ويرتبط ارتباطا شديدا بالوظيفة العلامية (semiotic function). ومن ناحية أخرى، فإن المادة تفترض مسبقا وجود الشكل، والعكس غير صحيح"[19].

إن ما عابه هيلمسلاف على دي سوسير في معالجته طبيعة العلامة، هو الفصل الذي أقامه دي سوسير عند "تناول التعبير والمضمون، كل على حدة، دون أن يأخذ في الحسبان دالة العلامة"[20]؛ باعتبارها ذلك الخيط الرفيع المجرد الذي يصعب تمثله والذي يقيم ترابطا يحقق شروط التحليل بين وظيفي العلامة (صعيد التعبير وثنائيته، وصعيد المضمون وثنائيته). وهو ما ساق هيلمسلاف إلى التأكيد على أن "التمييز بين التعبير والمضمون، وتفاعلهما في دالة العلامة، أمر أساسي في بنية أية لغة. فكل علامة وكل نسق من العلامات وكل نسق من الجزيئات المخصصة للعلامات، كل لغة، تحتوي في ذاتها على شكل تعبير وشكل مضمون"[21]، الذيْن يربطهما تضامن والتحام متبادل من خلال دالة العلامة.

ختاما يصل هيلمسلاف إلى نتيجة مؤداها أن صعيد التعبير وصعيد المضمون "لا يتعرفان إلا بتضامنهما المتبادل، ولا يمكن تعريف أي منهما بطريقة أخرى. وكلاهما معرف فقط بصورة تعارضية ونسبية باعتبارهما وظيفين يتبادلان التعارض في الدالة نفسها"[22].

وإذا عدنا إلى روبنز هنري روبنز فإننا نجده ينظر إلى جلوسيماتية هيلمسلاف "بوصفها التأكيد السوسيري على الصيغة في مقابل المادة في (مستوى المعنى content plane) (الدلالة والقواعد) و (مستوى التعبيرexpression plane) (الفنلجيا)، وعلى تعريف الصيغة بوصفها العلاقات المتبادلة للعناصر"[23].

ثالثا– العلامة في الخطاب اللساني عند هيلمسلاف امتداد أم تجاوز؟

انطلق هيلمسلاف "Hjelmslev" من مسألة بديهية مفادها أن اللغة نسق من العلامات[24]، محاولا إخضاع القضية –قضية العلامة– وعرضها على نظرية اللغة للوصول إلى المعنى الممكن إعطاؤه لهذه المسألة الجوهرية، فاقتصر في البداية على التصور التقليدي لها القائل "أن

العلامة تتميز أولا وقبل كل شيء بكونها علامة على شيء ما غيرها"[25]، وقد تفطّن صاحب الغلوسيماتية إلى هذه الخاصية واستثمرها في تقديم مفهوم وتحديد للعلامة جوهره "أن (العلامة) مُعرّفة بواسطة دالة. فـ(العلامة) تشتغل، وتعين، وتصرح. و(العلامة)، في مقابل اللا–علامة، تحمل معنى"[26]. وهو إذ يفسر العلامة اللسانية، فإنه يجسد فكرة التقابل التي أقرّها دو سوسير منذ البداية في محاضراته.

وفي هذا الصدد طبق هيلمسلاف عملية الجرد في أبعد حدوده وصورها أثناء تحليل نص ما للوصول إلى نسق من العلامات مستتر وراء إنجاز تلك العلامات، كون العلامات النهائية لا تقف عند حدود الكلمات التي قد يُظَنّ أن التحليل النهائي والتجزيئي يقف عند حدودها وأنها غير قابلة للاختزال، مثال ذلك كلمة "**سيعلمون**"، هي علامة في ذاتها، ولكن باتخاذ عملية الجرد المتناقص أثناء إجراء التحليل سنحصل على **أربع علامات أو مقادير** متباينة يحمل كل واحد منها معنى، لكن هذا الأخير ليس معنى معجميا، بل هو معنى سياقي، كون قيمة الوحدة اللسانية لا تتحدّد إلاّ من خلال تقابلها مع وحدات أخرى من النظام (النسق) نفسه، "فلا وجود لأية قيمة مفردة. ذلك أن قيمة أية وحدة لسانية (فونيم ما مثلا) لا تتأتى إلاّ في علاقة تلك الوحدة اللسانية بباقي الوحدات اللسانية الأخرى بما تعنيه تلك العلاقة من اختلاف وتمايز"[27]. وهذا يقتضي ربط تلك الوحدة اللسانية بوحدات أخرى من النسق نفسه في إطار شبكة من العلاقات. وهو ما ساق حنون مبارك إلى القول "أنه ليس لدليل (ولأية وحدة لسانية) أية قيمة في ذاته، ما دامت قيمته لا تتأتى من المادة التي صُنع منها، وإنما من نسق العلاقات والتضايفات والاختلافات والتمايزات"[28].

وبعودتنا إلى المثال الآنف الذكر، علامة "**سيعلمون**" نجد أن **السين** هنا و**الياء** و**علم** و**الواو** و**النون** كلها علامات.

(س)= أو مقدار دال على المستقبل من خلال السياق في مقابل العلامة العدمية [ø] zero morpheme.

(ي)= مقدار دال على الزمن الحالي (المضارع) (دال على التعيين والتحديد)، و(الغيبة والتذكير) من خلال السياق في مقابل العلامة العدمية [ø] zero morpheme.

(**و**)= مقدار دال على الجمع (مقولة العدد)، والتذكير (مقولة الجنس)، والغيبة في مقابل المفرد والتأنيث والخطاب/ التكلم على التوالي.

(**ن**)= مقدار دال على أن الفعل (يعلمون) من الأفعال الخمسة.

هذه الوحدات (المقادير) المتحصّل عليها هي تعابير–علامات، ذات معنى في مقابل اللا–علامات أو العلامات العدمية؛ ولكن المعنى الذي تحمله هو معنى مأخوذ من السياق الصوتي للكلمة، بمعنى أنّه مستقى من السلسلة الصوتية (the vowel chain) للكلمة، وبالتالي نستطيع أن بلوغنا هذا الحدّ من التحليل قد مكّننا من الحصول على ما يطلق عليه لويس هيلمسلاف الوحدات اللسانية المملوءة (الوحدات ذات المحتوى) أو "**الغلوسيمات**" "**glossemes**". وهي "الوحدات النحوية الصغرى التي لاتقبل التجزئة وتنقسم بدورها إلى قسمين: وحدات التعبير، وتدعى "سوانم" (cenemes)، ووحدات المحتوى، وتدعى "مضامين" (plermes)"[29].

هذه الوحدات اللسانية الصغرى "تتميز بالسلبية والعلائقية مما يعني أن قيمتها مكتسبة من خلال علاقتها بغيرها"[30]؛ وبعبارة أخرى فهي لا تحمل معنى في ذاتها إلا من خلال ارتباطها بوحدات أخرى في سياق صوتي معين، لكن إذا تمّ عزلها عن السلسلة الصوتية (الكلامية) فحينئذ لا تعدّ تعابير–علامات، وإنما تكون وحدات فارغة (cenemes).

وبرجوعنا إلى المثال المقدّم سلفا (سيعلمون) نلفي أنّ السابقة (السين) في هذه الكلمة تعبير–علامة (وحدة مضمون) في جانبها الدلالي التركيبي، أما من الناحية الصوتية فهي مقطع لفظي واحد أو فونيم واحد، وهذان الأخيران لا يعدان تعابير–علامات.

"فليست المقاطع اللفظية ولا الفونيمات تعابير–علامات بل فقط أجزاء من تعابير–العلامات"[31].

ويمكن توضيح ذلك على المنوال الآتي:

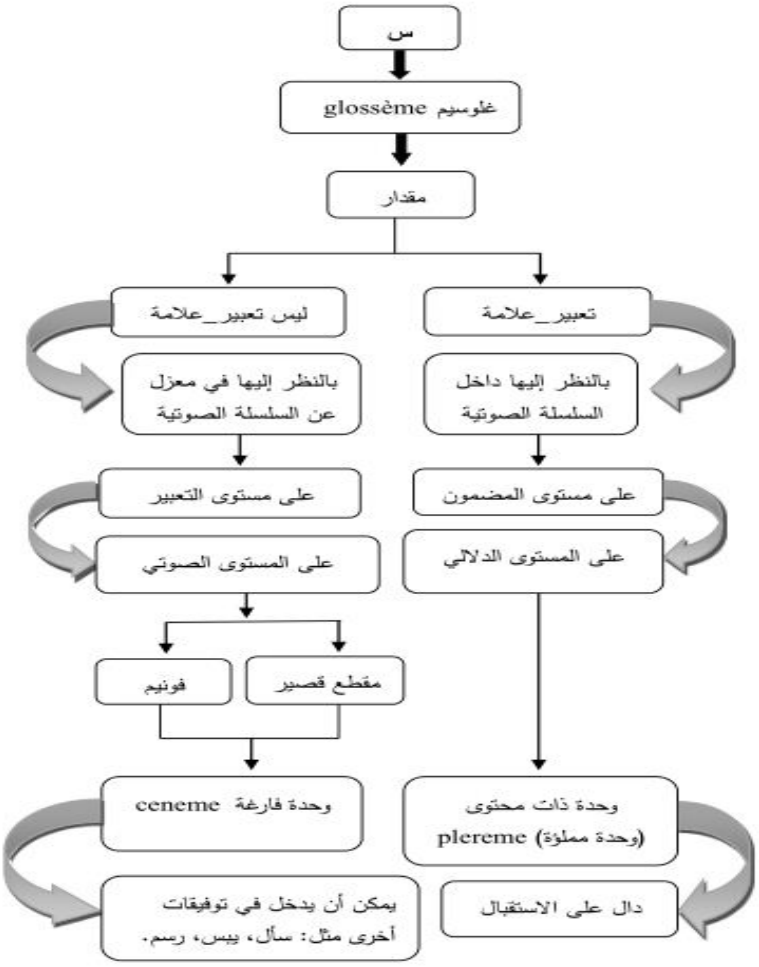

وعليه؛ فإن تعبير–العلامة (السين) الدال على المستقبل من الزمن لا يضمّ سوى فونيم واحد.

والأمر نفسه بالنسبة (**للواو**) من الكلمة نفسها (سيعلمون)، التي يتم تحليلها على الشاكلة الآتية:

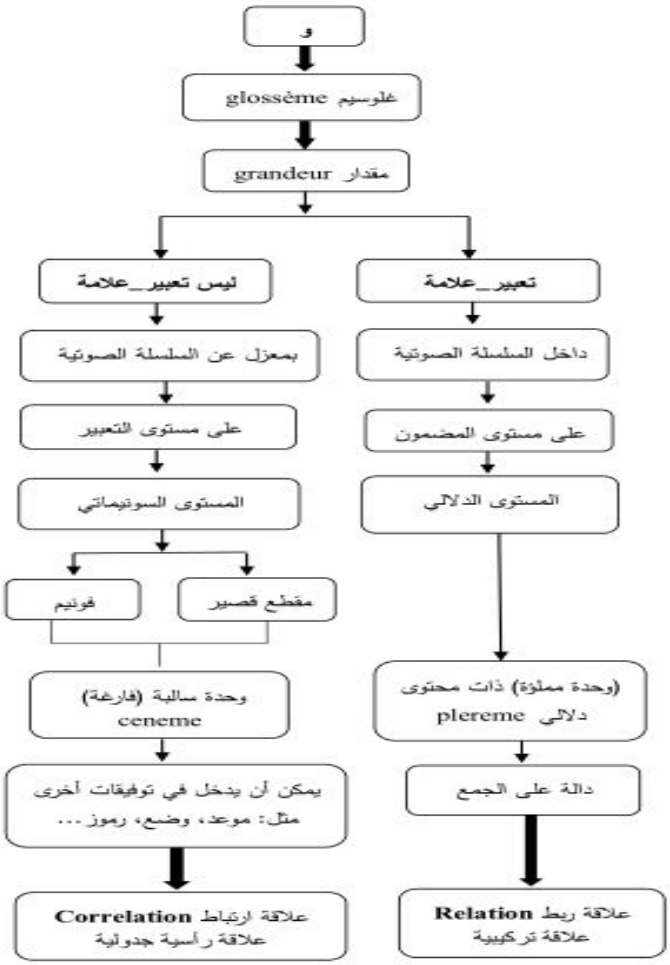

من خلال النموذجين التحليلين السابقين نلاحظ أن تعابير–العلامات تتكون بدورها من أجزاء من تعابير–علامات –وبذلك فهي لا–علامات– أطلق عليها صاحب الغلوسيماتية مصطلحا إجرائيا محضا هو "**جزيئات**"؛ هذه الجزيئات (المقاطع والفونيمات –وهي اللا–علامات–) تكون محصورة العدد ومحدودة في أي لغة وتدخل في نسق العلامات، وانطلاقا منها يمكننا بناء عدد لا متناه من العلامات، أو بمعنى آخر، انطلاقا من عدد محدود من اللا–علامات (جزيئات العلامات) يمكننا بناء عدد لا محدود من العلامات.

وهو ما جعل رائد الغلوسيماتية يقرّ بأن تعريف اللغة كنسق من العلامات يعدّ غير كاف، ذلك أن اللغات بحسب بنياتها الداخلية، هي أنظمة جزيئات يمكن أن تُستخدم لإقامة نسق من العلامات[32].

رابعا– تصورات العلامة في الخطاب اللساني

إنّ طرح العلامة في الخطاب اللساني ليس شيئاً مبتكرا، وإنما هي وليدة تراكمات معرفية. فقد عرض لها دي سوسير في محاضراته حينما أكدّ على أن العلامة تربط بين قطبين هما الفكرة والصورة الصوتية، وهما عنصران ذوا طبيعة نفسية (سيكولوجية)؛ يتحدّان في دماغ الإنسان بآصرة التداعي (الإيحاء) وهذا أمر ينبغي تأكيده[33]، وتلك فكرة امتدت فيما بعد إلى البحث الغلوسيماتي مع هيلمسلاف الذي أعاد صياغتها وفق ما اقتضته مقدمات نظرية اللغة باسم الارتباطات المتبادلة.

1– العلامة في تصوّر هيلمسلاف

إن هيلمسلاف في تحديده لمفهوم العلامة احتكم إلى معيار "الملاءمة"* (Appropriateness)، الذي خوّل له اختيار وإقرار أي من التصورين أصوب، ومبدئيا يبدو أنه نحى منحى دي سوسير، إلاّ أنّ تحليله التجريدي أخذ بعدا أعمق حينما أكّد أن ما يتولّد بين مقداري التعبير والمضمون هو دالة العلامة وليس العلامة ذاتها.

وهو إذ يتلافى الحديث عن العلامة في حد ذاتها كعلامة –ربما للحمولة الدلالية التي اكتسبها المصطلح في النظرة التقليدية– ليسنّ لنا مصطلحا رياضيا آخر أكثر تجريدا وشكلية من الأول هو مصطلح "دالة العلامة".

خامسا– العلاقة بين التعبير والمضمون

يشير هيلمسلاف إلى وجود علاقة تربط بين الدالة وطرفي (وظيفي) الدالة، اصطلح عليها دالة أو علاقة تضامن وتآزر. "وهو تضامن لا يجعلنا نتصور وظيف بمعزل عن وظيفيها (أو أكثر) ولا نتصور وظيفا (functive) إلا باعتماد مفهوم الوظيفة. وبناء عليه فالتعبير (أو اللفظ) لا يكون تعبيرا إلا إذا كان تعبيرا عن مضمون ما. والمضمون لا يكون مضمونا إلا إذا كان مضمون تعبير ما"[34].

إذن حسب هيلمسلاف وجود دالة العلامة (sign function) يقتضي وجوبا الحضور المتزامن لوظيفيها (قطبيها التعبير والمضمون) والعكس صحيح[35]، إذ إنه يجسد العلاقة في شكلها الآني.

فهو في تحليله وعرضه لدالة العلامة المنعقدة بين التعبير والمضمون يوافق إلى حد مّا ما عبّر عنه وأكده سوسير بفكرة الربط بين العنصرين (الدال والمدلول) واتحادهما في دماغ (ذهن) الإنسان بآصرة التداعي، أي أن أحد الطرفين يستدعي الآخر ويوحي به ضرورة في دالة العلامة، وهذا الالتحام والترابط الوثيق الصلة بين وظيفي دالة العلامة يجعل من الفصل بينهما في الحقيقة أمرا مستعصيا شكلا إلا لأغراض الدراسة والتحليل التي يتيحها المستوى الإجرائي البحت.

من بين أهم النقاط التي وضعها هيلمسلاف ضمن منهجه الغلوسيماتي، تفريقه بين مسألتين جوهريتين قد يلتبس أمرهما على الباحث اللساني في تحليله ألا وهما: المضمون والمعنى، داعيا في الوقت ذاته إلى ضرورة التمييز وعدم الخلط بين غياب المعنى وغياب المضمون، فحسب منظوره "يمكن أن يكون للتعبير مضمون، يعتبر من وجهة نظر معينة(...)، مفرغا من المعنى، ومع ذلك فهو مضمون"[36].

يقول هيلمسلاف: "إذا فكرنا دون أن نتكلم فإن هذا التفكير ليس مضمونا لسانيا وليس وظيفا لدالة العلامة. وإذا تكلمنا دون أن نفكر منتجين مجموعات من الأصوات دون أن يستطيع سامعها أن يربط بها أي مضمون فسوف تكون هرطقة وليس تعبيرا لسانيا"[37].

وإذا صغنا كلامه هذا في شكل معادلة لسانية سنحصل على ما يأتي:

1/ +تفكير(+معنى [كمادة خام، أي سديم لا شكل له]) -كلام ⟸ -مضمون لساني [-شكل المضمون form of content]. أي (-بنية تركيبية وصرفية).

2/ +كلام (+مجموعات من الأصوات [+مادة خام أي مادة التعبير+شكل التعبير])- تفكير [-صورة المضمون، أي –بنية تركيبية وصرفية] ⟸ -صورة أو شكل التعبير. أي (-تعبير لساني "الأصوات في علاقتها بوحدات النسق الأخرى").

وللتوضيح أكثر نسحب هذه المعادلات على أمثلة من اللغة العربية فنصل إلى ما يأتي:

لدينا المنطوق الآتي: **"كتبتُ مقالي"** الذي يضم (**فكرة الكتابة**) كمادة خام لا شكل لها.

هذه الفكرة إذا لم يتم ربطها بشكل ما (أو بالصورة التي تأخذها المادة باعتبارها الطاقة التصويتية الممكنة) في علاقتها بوحدات النسق الأخرى، فبالتأكيد سوف لن تعطينا بنية صرفية وتركيبية. بمعنى لن نحصل على أي مضمون لساني.

أمّا إذا أصدرنا مجموعة من الأصوات ذات شكل معيّن دون ربطها بفكرة، أي أن نجرّدها من البنية التركيبية والصرفية، على سبيل المثال: (**كقاتُ بمليت**) فلن نحصل على تعبير لساني أي يكون هذا التصويت مجرّد هرطقة لا أساس لها، بعبارة أدق لا توجد علاقة ربط [Relation وَ...وَ] بين الأصوات تربطها بباقي وحدات النسق الأخرى.

وفي كلا الحالين لا يكون المضمون وظيفا لدالة العلامة ولا التعبير وظيفا لها. إذ نجد هيلمسلاف يلح ويؤكد على المضمون كبنية صرفية وتركيبية، وعلى التعبير كشكل تأخذه المادة التصويتية في علاقتها بوحدات النسق الأخرى؛ وكلا القطبين يشكلان دالة العلامة لسانيا.

فيكون بذلك قد **أسقط وألغى وتجاوز التصور التقليدي والميتافيزيقي والفلسفي للعلامة، وقدّم مفهومه اللساني لدالة العلامة الذي ينأى عن النظرة التقليدية المعيارية لها**.

وهكذا بتأكيده على شكل المضمون وشكل التعبير يكون صاحب الغلوسيماتية قد نحا منحى سوسير في إقراره حقيقة أن اللغة شكل وليس مادة.

وفي إشارة ذكية من صاحب "مبادئ نظرية اللغة" نجده قد تنبّه إلى قضية دقيقة فحواها أن هناك فرق بين غياب المضمون وغياب المعنى يقول: "يجب ألا نخلط بين غياب المضمون وغياب المعنى: يمكن أن يكون للتعبير مضمون، يعتبر من وجهة نظر معينة (مثلا وجهة نظر المنطق المعياري أو النزعة الفيزيائية)، مفرغا من المعنى، ومع ذلك فهو مضمون"[38].

من خلال تصريحه هذا نستشف أنه يركز على الجانب الوظيفي العلاقي وليس على الجانب الدلالي؛ ووجهة النظر هذه المقدمة من لدن هيلمسلاف تتقارب بشكل كبير مع ما ذهب إليه تمام حسان فيما بعد في طرحه أثناء تأكيده على المعنى الوظيفي الذي يأخذه الجزيء التحليلي داخل التركيب في إطار علاقته بباقي الوحدات اللسانية، دون احتساب المعنى الدلالي أو المعجمي الذي تحمله تلك الوحدات.

وقد قدّم تمّام حسّان في هذا المضمار مثالا توضيحيا أثبت من خلاله نجاح عملية التعليق بالنظر إلى المعنى الوظيفي لكل وحدة لسانية وعلاقتها بالوحدات الأخرى، فاستطاع إعراب نسق

نطقي هرائي دون التمسك بالمعنى المعجمي أو الدلالي، أي أنه أهمل المعنى. أو بصيغة أخرى أفرغ التعبير من المحتوى الدلالي (المعنى) ولكن في المقابل منحه مضمونا (بمعنى لم يُغيّب عن التعبير المضمون)، حيث جعل هذا النسق النطقي الهرائي مكوناً من أصوات عربية، ثم بناه على الصيغ والمباني الصرفية العربية، وتحرّى في ذلك الحفاظ على شكل العلاقات التركيبية[39] بين وحدات النسق؛ بقطع النظر عن المعنى الذي يُنسب إليها سواء أكان معجميا أم دلاليا. مثاله في ذلك[40]:

قاصَ التَّجِينُ شِحَالَهُ بِتَرِيسِهِ الـ فَاخِي فَلَمْ يَسْتَفْ بِطَاسِيَةِ البَرَنْ

فتحليل تمّام حسّان تحليلٌ نسقي وظيفي يتقاطع في جانب كبير منه مع التحليل اللساني الغلوسيماتي على صعيد التعبير أو صعيد المضمون عند لويس هيلمسلاف، الذي يهتم بالصورة المتكونة "من العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية داخل سلسلة الكلام"[41].

فبتركيزه على العلاقات الاتصالية [Relational وَ..وَ] القائمة بين أجزاء السلسلة [Part] على مستوى الحدثان (الصيرورة) على المستوى الأفقي، وبالتالي تكون الوظيفة الناتجة عنها علاقة ربط تجعل عناصر السلسلة الواحدة مرتبطة بطريقة مخصوصة فيما بينها.

بينما العلاقات الانفصالية أو الارتباطية [Correlational أَوْ..أَوْ/ إما..إما] الناشئة بين أطراف المصفوفة [member] أو بين عناصر عمود معين يمكن أن يعوض بعضها بعضا على مستوى النسق.

ومنه فمحاولة تحليل أية علامة لسانية ينبغي أن يراعى فيه العلاقات والارتباطات التي تجمع بين أجزاء السلسلة على مستوى الإنجاز (الخطاب) وعلى مستوى النسق. بمعنى أن تحليل العلامة اللسانية يفرض النظر إليها والتعامل معها سياقيا وجدوليا؛ أضف إلى ذلك أن تحديد العلامة المحايث يرتكز "على وظائفها الداخلية (الارتباطات القائمة بين صعيد التعبير وصعيد المضمون) ووظائفها الخارجية التي تتجلى في العلاقات الرابطة بين العلامة وباقي العلامات الموجودة معها سياقيا واستبداليا"[42].

وهكذا يمكن الوصول في ختام التحليل من الجانب الصوري الشكلي إلى عدد متناه "من وجوه التعبير ووجوه المضمون (وهي المقولات الدلالية) بما في ذلك دلالة المقولات النحوية مثل: عدد – نوع – مذكر –حالة – شخص– زمن. وعن طريق التوليف بين هذه الوجوه على صعيد التعبير وصعيد المضمون نحصل على عدد غير متناه من العلامات اللغوية"[43]. والعلامات هنا المقصود

منها كما يشير إلى ذلك غلفان هي الصوتات والمقاطع والصُّرفات والكلمات والجمل وحتّى الفقرات[44].

وبناء على تصور هيلمسلاف الشكلي العلاقي يمكننا أن نأخذ منطوقا لسانيا ونحلّله وفق مبادئه الإبستيمولوجية، آخذين في الحسبان مبدأ كلّيًّا مشتركا بين جميع الألسن الطبيعية وهو **مبدأ البنية**، الذي يتمّ تجسيده بشكل مختلف من لسان إلى آخر[45]. وبالتالي يقودنا وصف البنية المعيّنة إلى استكناه الآلية أو الأداة التي تمكننا من "رد الارتباطات التي تتضمنها إلى وظائف. ولذا يُعدّ التحليل الغلوسيماتي وظيفيا، إذ وراء الارتباطات المختلفة بين مكونات البنية تكمن الوظائف"[46]. وهذا ما أكده غلفان.

سادسا– دالة العلامة بين الطرح اللساني التراثي العربي عند سيبويه والدرس اللساني الغربي عند هيلمسلاف

جاء في كتاب سيبويه "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، فمنه: مستقيم حسن (+لفظ +معنى) مثل أتيتك أمس، ومحال مثل أتيتك غدا أي أن تنقض أول كلامك بآخره، ومستقيم كذب مثل قولك حملت الجبل، ومستقيم قبيح ومعناه أن تضع اللفظ في غير موضعه، ومحال كذب كقولك: سوف أشرب ماء البحر أمس[47].

فالمتتالية الكلامية **"أتيتك أمس"** يمكن أن تحلل وفق المقدمات الإبستيمولوجية في الخطاب اللساني الهيلمسلافي على المنوال الآتي[48]:

أتيتك أمس = مستقيم حسن = [+لفظ +معنى] = [+شكل التعبير+شكل المضمون].

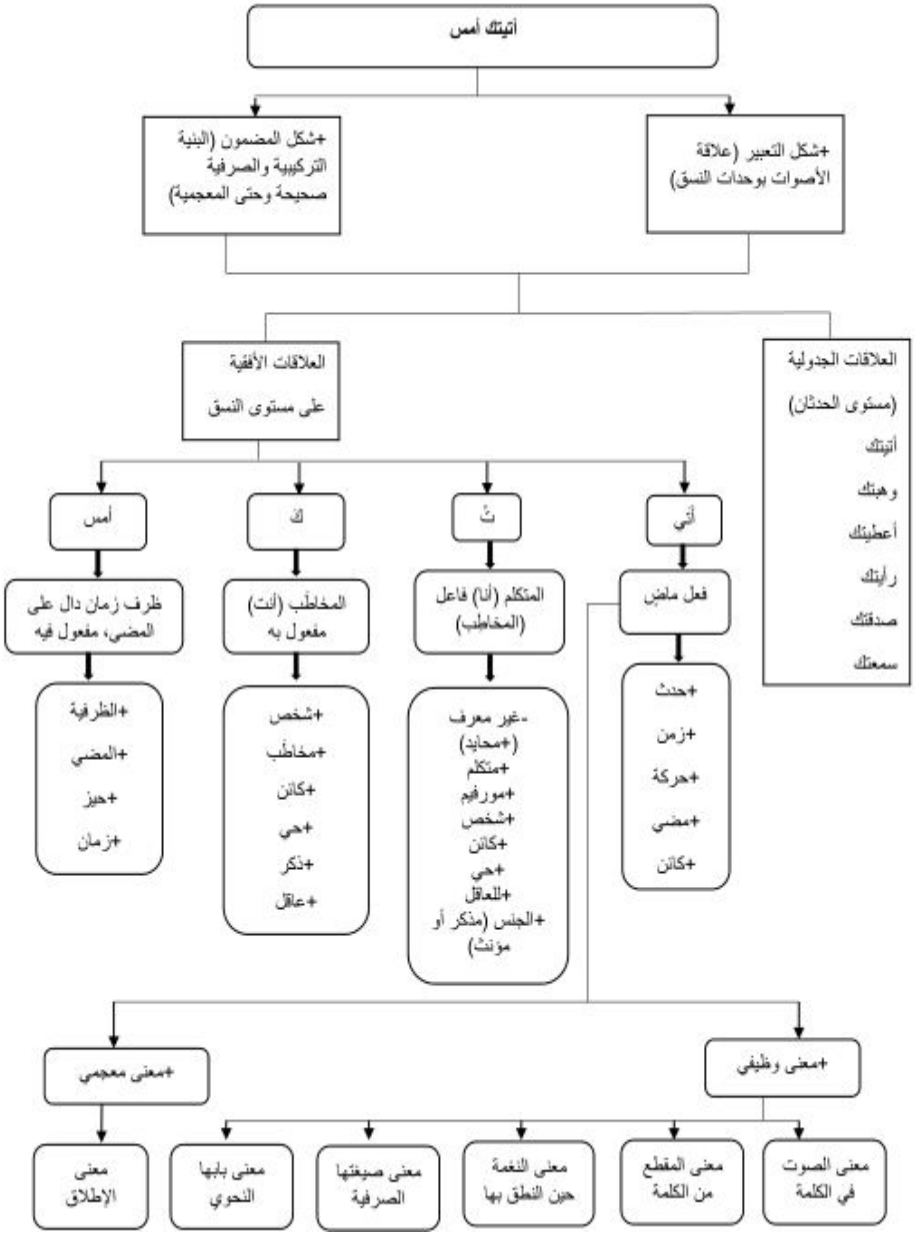

والأمر نفسه بالنسبة لتاء المتكلم في (أتيتُ)، حيث تحلل على النحو الآتي:

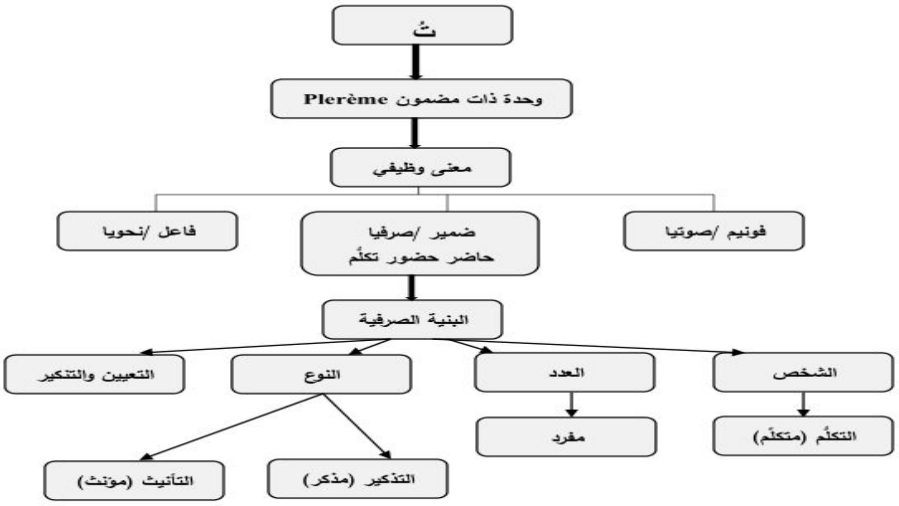

فالمعنى الوظيفي عند تمّام حسّان هو الدور الذي يؤديه الجزيء التحليلي كالصوت أو الحرف أو المقطع أو الصيغة الصرفية أو الباب النحوي في المنطوق[49]. كون المعنى على مستوى الأنظمة الثلاث (الصوتي والصرفي والنحوي/التركيبي) معنىً وظيفيًا، أي وظيفة المبنى التحليلي يليه معنى الكلمة المفردة (المعنى المعجمي)؛ وما يكون بمجموع هذيْن المعنَيَيْن مضافا إليهما القرينة الاجتماعية الكبرى التي تمثّل المقام الحالي (السياق) (context of situation) يعطينا المعنى الدلالي الأوسع، الذي يقود إلى المعنى القصدي الحقيقي أو ما يطلق عليه تمّام حسّان بالوظيفة القصدية[50] للخطاب اللساني.

خاتمة

بعد هذه الرحلة البحثية في فكر اللساني لويس هيلمسلاف حول العلامة في خطابه اللساني من خلال مؤلفه المعروف "حول مبادئ نظرية اللغة" نصل إلى النتائج الآتية:

*لويس هيلمسلاف لم ينطلق من فراغ في إعادة صياغته وبلورة التصور اللساني للعلامة اللسانية، بل ارتكز إلى ما قدّمه رائد اللسانيات البنوية سوسير من معطيات، ويحسب له فضل السبق في إعادة تحديد مفهومها انطلاقا من مقدماته الإبستيمولوجية، وكذا من خلفيته الرياضية المنطقية المجردة.

*أضفى صاحب الغلوسيماتية على مفهوم العلامة صبغة رياضية وكيّفها حسب جهازها المصطلحاتي.

*وفعلا استطاع هيلمسلاف تجاوز ما قدمه سابقوه من مفهوم للعلامة وكيفية تحليلها وقد كانت لنا وقفة في متن البحث مع بعض النماذج التي حاولنا من خلالها-حسب جهدنا المتواضع- تقديم بعض المعطيات والحقائق الدقيقة.

هوامش:

[1]- فوزية دندوقة: أثر لسانيات دي سوسير فيما تلاها من مناهج ونظريات، ندوة المخبر، اللسانيات: مائة عام من الممارسة، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، دت، ص5.

[2]- ينظر: لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، منشورات ضفاف، (بيروت)، ط1، 2018م، ص20.

[3]- المرجع نفسه، ص27.

[4]- المرجع نفسه، ص27.

[5]- المرجع نفسه، ص59.

[6]- ينظر: المرجع نفسه، ص59.

[7]- عز الدين المجدوب: المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، (الجمهورية التونسية)، ط1، 1998م، ص100.

[8]- لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص60.

[9]- المرجع نفسه، ص62.

[10]- ينظر: المرجع نفسه، ص63.

[11]- ينظر: المرجع نفسه، ص64.

[12]- المرجع نفسه، ص64.

[13]- عز الدين المجدوب: المنوال النحوي العربي، ص104.

[14]- ينظر: -شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، (بيروت)، ط1، 2004م، ص23.

-نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، (القاهرة)، 2003م، ص ص119-120.

[15]- نعمان بوقرة: المدارس اللسانية المعاصرة، ص120.

[16]- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، حيدرة، (الجزائر)، ط2، 2006م، ص121.

[17]- ينظر: المرجع نفسه، ص121.

[18]- ينظر: روبنز هنري روبنز: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، ع227، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت)، نوفمبر 1997م، ص289.

[19]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، (الجزائر)، ط2، 2005م، ص162.

[20]- لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص ص60-61.

[21]- المرجع نفسه، ص70.

[22]- المرجع نفسه، ص72.

[23]- روبنز هنري روبنز: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تر: أحمد عوض، ص289.

[24]- ينظر: لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص54.

[25]- المرجع نفسه، ص54.

[26]- المرجع نفسه، ص54.

[27]- مبارك حنون: مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، (المغرب)، ط1، 1987م، ص101.

[28]- المرجع نفسه، ص101.

[29]- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور، ص60.

[30]- نعمان بوقرة: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، ص117.

[31]- لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص57.

[32]- ينظر: المرجع نفسه، ص58.

[33]- ينظر: فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، (العراق)، 1985م، ص84.

*- أي عندما تستوفي مقدمات النظرية شروط التطبيق على عدد كبير من معطيات التجربة. ينظر: لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص23.

[34]- عز الدين المجدوب: المنوال النحوي العربي، ص100، وينظر أيضا: لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص60.

[35]- voir : Lois HJELMSLEV: PROLEGOMENA to a theory of Language, Translated by Francis J.Whitfield, the university of Wisconsin Press, London,1969, p : 48.

[36]- لويس هيلمسلاف: حول مبادئ نظرية اللغة، تر: جمال بلعربي، ص60.

[37]- المرجع نفسه، ص60.

[38]- المرجع نفسه، ص60.

[39]- ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب الحديث، القاهرة، (مصر)، ط3، 1979م، ص ص182-183.

[40]- ينظر: المرجع نفسه، ص ص183-184.

[41]- مصطفى غلفان: اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، دار الكتاب الجديد المتحدة، (بيروت)، ط1، 2013م، ص288.

[42]- المرجع نفسه، ص294.

[43]- المرجع نفسه، ص296.

[44]- ينظر: المرجع نفسه، ص296.

[45]- المرجع نفسه، ص277.

[46]- المرجع نفسه، ص278.

[47]- ينظر: سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، (مصر)، ط2، 1988م، ص ص25-26.

[48]- أفدنا في تقديم وعرض هذا التحليل من بعض المعطيات التي قدمها تمّام حسّان في مؤلفاته:

ينظر: -تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ص133-134.

-تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج1، عالم الكتب، القاهرة، (مصر)، ط1، 2006م، ص331.

[49]- ينظر: تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج1، ص334.

[50]- ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص182.